تداولية الخطاب البلاغي، الفعل البلاغي والإحالة المقامية في قصيدة منزل الأقنان للسياب أنموذجا.

The pragmatic rhetorical discourse, the rhetorical action, and the position referral in the poem "The House of the Serfs" by al-Sayyab as a model.

بوزيان بغلول*

كلية اللغة العربية وأدابها واللغات الشرقية، جامعة الجزائر 2.

bouziane.01.loul@mail.com

تاريخ الاستلام: 2023/03/25 تاريخ القبول: 2019/06/06 تاريخ النشر: 2023/06/30

ملخص:تشترك كل من التداولية والخطاب والبلاغة في بحثها عن الإيحاء اللغوي أو معنى المعنى، وقطبها في ذلك العلامة بين المتكلم والمخاطب ومقام التخاطب،ولما نكون بصد ثلاث اتجاهات لسانية: الوظيفية، الدلالية، والتداولية، تصعب أنسقة الخطاب قصد الوقوف على معماريته نتيجة تداخل بين المناهج (النحو الوظيفي أو الوظائف التداولية، علم الاجتماع اللغوي، وعلم نفس اللغوي، والبلاغة) لكن عند إلحاق الخطاب بالتداولية نكون قد اصطنعنا لأنفسنا منهجا اتصاليا لغويا أكثر تحررا من الأنسقة فيما لوكنا بإزاء التداولية وتحليل الخطاب البلاغي/الأدبي بمعزل عن بعضهما، فإذا كانت النظرية الوظيفية في اللسانيات إما دالية/صورية،وإما تداولية فإن التحليل التداولي للخطاب البلاغي ينحو منحى تأويل المعنى تأويلا دلاليا ثقافيا (تداولي إنجازاي، وسياقي بلاغي مقامي معا)

ويدل هذا الإجراء أن اللغة غير متماثلة إلا عبر بنيتها (دال ومدلول معا) لذا عدت بنيتها مِن الفكر؛ وإن كان بمقدور الشعرية أن تربط بين مستويي التحليل اللغوي والأدبي/الفكري فإنّ الدلالة ممكنة شعرية من ممكنات النظام وكلية البنية، وهي ممكنة خطابية بالأساس (خارج نصية) لأن الوظائف الجزئية لا تُشيّد الكل إلا تشييدا شعريا تركيبيا وإنجازايا مقاميا في آن، ونعمل على تأكيد االنظري عبر أنموذج تطبيقي، وهو قصيدة منزل الأقنان لبدر شاكر السّياب.

* . **المؤلف المرسل:** بوزيان بغلول، **الإيميل:** bouziane.01.loul@mail.com

كلمات مفتاحية: الوظائف التداولية؛ الاتصال البلاغي؛ الإحالة المقامية؛الصورة الشعرية؛ تحليل الخطاب.

Abstract: Pragmatics, discourse, and rhetoric share in their search for linguistic suggestion or the meaning of the meaning, and their pole in that is the sign between the speaker and the interlocutor and the place of discourse, and when we are dealing with three linguistic directions: functional, semantic, and pragmatic, the discourse systems are difficult in order to stand on its architecture as a result of an overlap between the approaches (Functional grammar or deliberative functions, linguistic sociology, linguistic psychology, and rhetoric). Linguistics is either semantic/formal, or pragmatic. The pragmatic analysis of rhetorical discourse tends to interpret the meaning in a culturally semantic interpretation (performative-pragmatic, and contextual-rhetorical-stage together).

This procedure indicates that the language is not identical except through its structure (signifier and signified together), so its structure is from thought. And if poetics can connect the two levels of linguistic and literary/intellectual analysis, then the signification is poetically possible from the possibilities of the system and the totality of the structure. Through an applied model, which is the poem The House of Serfs by Al-Sayyab.

Keywords: Pragmatic; Rhetorical communication; Poetic; rank; Discourse analysis.

1.مقدمة :

عند احتمال إدراك المعنى إدراكا إشاريا، نكون حينئذ بإزاء مقاربة علم اللغة الحديث له، أين تلعب مرصوفات البنية بذاتها ـ منها وإليها ـ دورا في إزالة اللا دلالة إزالة إشارية محضة، وتتموقع الدلالة في هذه الحالة خارج البنية الذهنية التاريخية للإدراك نفسه، بينما في حالة إدراكنا للمعنى إدراكا خطابيا تداوليا فيوجد اللفظ بين المرسل والمتلقي في الحالة المتغيرة (الثالثة) من حالات معان اللفظ: معنى اشتقاقي وهو الذي يربط اللفظ بأصله الحسي، ومعنى اصطلاحي وهو الذي يربط اللفظ بالمعنى الجديد، والمعنى العرفي التداولي بحسب استعمالات اللفظ، ومهما تناسلت وتفرعت إنزياحات اللفظ الشعرية في سياق الجملة، تتموقع مختلف الوظائف في اتجاه واحد منسجم مع البنية الذهنية للمرسل والمتلقي، وتتحد الوظيفة الإشارية مع الوظائف الاتصالية والبراغماتية والبلاغية، وهذا إذا ما أفضى ـ بحد ذاته ـ إلى معنى فإنه يفضي

إلى أنّ تطور النقد اللغوي والأدبي كان ولا يزال نتاج تغير وتعدد الأصول المعرفية والمذاهب والتيارات الفلسفية المؤثرة، بمعنى أدق لم تنفصل جميع النظريات النقدية الحديثة والمعاصرة، والذي اكتسب علم اللغة وعلم النقد الأدبي المعاصرين بموجبها هويتهما وتماسكهما "النسبي" في وجه التغير السريع المتلاحق في وجه سلطة الثقافة.

وقد ظلت الإشكالية العويصة التي تستولي على اهتمامات المحلل البنيوي هي إشكالية التنافر أو اللاتطابق المتمثل في مفارقة وظيفة اللغة لوظيفة الأدب لوظيفة للغة التي في اللغة، أي الخطاب، ولعلّ الإشكالية التي تجمع اللغة والعمل الأدبي بمعزل عن لسانيات الخطاب فتبقى استحالة الدراسة الوصفية للمعنى الذي هو غاية العمل الأدبي إلا عبر اللغة وتضاريسها المورفولوجية، وذلك ما اضطلعت به اللسانيات باتجاهاتها الثلاثة. ولما نكون بصدد نقطة خلافية بين نظرية الأدب ونظرية النقد الجديد ألا وهي البلاغة فإننا حتما الخطاب الأدبي سيزيل الالتباس، كون دور الاستعارة (أي البلاغة) في تبلور معنى ما لا ينظر إليه المتلقي من زاوية واحدة،أي دور العوامل الثقافية في إيلاء الشعور بالجمال الأهمية من عدمه؛ ذلك أنّ المصطلح والمفهوم المركزي الجديد الذي جاءت به الشكلانية والبنيوية ألا وهو الشعرية **poetics** انسجم أو اتّفق مع قواعد علم اللسانيات الحديث في إشاريتها عن الدلالة، لكنها لم تنسجم مع شعرية التصورات الذهنية ذات البعد الإيحائي لدى المرسل والمتلقي (التأثير الذوقي إن شئت) أي أن الشعرية هي قوانين الخطاب الأدبي إشاريا فقط والخاصة بالنص الأدبي، أمّا شعرية العمل الأدبي فيتقاسم تصوراتها الشعرية المرسل والمتلقي.

وللإشكالية في بعدها الخارجي ههنا بذور داخلية وهي أن يجمع مفهوم الخطاب مفاهيم ثلاثة: مفهوم شكلي جمالي، على اعتبار أن البنية السردية تقوم على السرد الاستذكاري والتنبؤي والحكائي، والشعرية تقوم على المظهر الصوري والإيقاعي والجمالي، والنصية تقوم على التماسك والدلالة والبناء ويجمع بين الثلاثة الأسلوب الذي هو مفهوم شكلي وكثيرا ما أُصطلح على هذا الأسلوب بلسانيات أو ببنية الخطاب حيث لا يظهر الأثر الإنتاجي الدلالي إلا مرورا بالصيغة الشكلية المحدِثة للأثر البديع لدى القراء، وعندما يقول رامان سفيلد: "عندما تطبق نموذج التحليل اللغوي على الأدب، نبدو كالذي يرسل الفحم الى نيوكاسل ذلك لأنه إذا كان الأدب لغة ـ في آخر المطاف ـ فما القصد من دراسته في ضوء النموذج اللغوي؟ الحق أنه من الخطأ التوحيد بين الأدب واللغة، صحيح أن الأدب يستخدم اللغة أداة له، ولكن

ذلك لا يعني اتحادا بين بنية الأدب وبنية اللغة، فالعناصر ليست متطابقة بين كلتا البنيتين. ومعنى ذلك أنه عندما يطالب تودوروف بنظرة أدبية جديدة تؤسس "أجرومية" عامة للأدب، إنه يطالب بنظرية تكشف من القواعد الكمية التي تحكم الممارسة الأدبية ولأن البنيويين من ناحية أخرى يذهبون إلى وجود علاقة خاصة بين الأدب واللغة، فالأدب عندهم يلفت انتباهنا الى طبيعة اللغة نفسها، وخصائصها النوعية، فنظريتهم الأدبية البنيوية وثيقة الصلة بالشكلية في هذا الجانب"[1]

إن إهمالنا للأنساق الثقافية في للغة التي نحللها في الأدب عواقب إشكالية جسيمة. أي أن الخطاب لساني وتداولي في آن أو كما قال بول ريكور: الخطاب هو مجموعة المقولات ـ شفاهية أو كتابية ـ التي تنطوي على بعد زمني وأحداث، تكون قادرة على نقل المعنى. وفرضية الخطاب الشعري تحت هذا الحكم: أنه لولا إحاليته المقامية لما تجاوز خطابه الشعر الكلاسيكي واحتل مكانة مرموقة في تاريخ الشعر العربي الحديث.

أما الإشكالية المنهجية التي اعترضت سبيلنا هي بالذات إشكالية هذا البحث، أو بالأحرى التعدد المنهجي الذي لا بد منه، وهو إن لم يكن هناك مجاوزة مفاهيم التداولية المتعددة المرتبطة بالمتكلم وبالكلام وبمستقبل الكلام وهي (السياق، الفعل الكلامي، القصدية، الاقتضاء، الاستلزام الحواري، نظرية الملائمة، الموجهات..) لأنها لا تخرج عن لغة الحقيقة المعيار الأرسطي للبلاغة (الصدق والكذب)عن طريق التداخل المتواقت فيما بينها، فبإدخال طرف الخطاب، وذلك بالحاق خطاب التلقي السياقي المقامي للشعر العربي بالوظائف التداولية، لأن لغة الشعر مجازية، ورحيق اللغة مثير للصور الشعرية كدأبه، ولعل مدى انسجام قواعد الوظائف التداولية لدى احمد المتوكل على مدونتنا الشعرية المختارة، والتي طرفاها مرسل مخاطِّب ومخاطَب/ مرسل إليه، في وجود الوظيفة الشعرية إزاء متلقٍ للخطاب الشعري البلاغي (لغة المجاز) هو بمثابة نفي لأي الإشكالية، وإثبات صحة استعمال الكلام في مقام تخاطبي معين متسم بتقاسم مستوى الإدراك النفسي له، والعكس غير صحيح لما يتفاوت إدراك الخطاب الشعري البلاغي بين طرفي الاستعمال التواصلي له كأن يكون المتكلم شاعرا والسامع طبيبا مثلا. ونحسب بذلك أننا قد وحدنا بين مختلف الحقول المعرفية في حقل معرفي واحد.

ونود تتبع مسار تطور ما يقابل تطور الوظيفة اللسانية الداخل نصية على مستوى (السبك، الحبك، القصد، القبول، الإعلام، المقامية، التناص)[2]ونعني به "الوظيفة الدور" التي تستبق أو تستبسر الإيحاء والتفسير الخارجي التصنيفي متجاوزة التفسير الوصفي البنيوي أو الشكلي (لدى اتجاه دراسات وأبحاث

البنيوية التكوينية مثلا) وهذا الموقع الوسط بين الوظيفتين يتداخل عبر مفهومين؛ تقليدي (البلاغة أو النحو العربي) وحداثي عبر مفهوم الخطاب* بعامة، "مفهوم الخطاب يرفض سلطة النص ومنهجه العلمي في ثوب كل موقف، وكل صورة"[3] والخطاب الشعري بخاصة، "يمكن اعتبار الخطاب الشعري وسيلة تواصلية لا يتوفر المعنى فيها بواسطة خصائصه البنيوية، وملامحها اللفظية والشكلية البراقة فحسب، بل بآليات التواصل والاستقبال والتحويل والإحالة*"[4]

فهل يمكن استعمال الخطاب الشعري (الفعل الكلامي، القصدية، التلفظ، الاستلزام الحواري، نظرية الملائمة) استعمالا تداوليا؟ أي رد أصل الإشكالية إلى مفهوم وظيفة اللغة نفسها؟ وإذا قبلنا بهذا الافتراض فأمكننا ذلك ـ بلا ريب ـ الاستفادة كذلك من نظريات فلسفة اللغة، أم إلى ضرورة تحديد أي اللغات وأي الخطابات المعنية، حيث لغة وخطاب الأدب يختلف؟ ونكون حينئذ ولجنا الجدل القائم حول مفهوم نظرية الأدب وتستطيع القول حينئذ ولوجِنا نظريات القراءة والتلقي. ونقوم بتحليل الخطاب تحليلا وظائفيا على المستويين اللساني الإشاري والشعري الإحالي في قصيدة بدر شاكر السياب كونه متأثرا بالشعر الإنجليزي الحديث اللا غنائي واحتوائه على قصة. فما مدى صحة علاقة النشاط اللغوي بمستعمليه، وطرق وكيفيات استخدام العلامات اللغوية، والسياقات، والطبقات المقامية المختلفة التي ينجز ضمنها الخطاب في هذه القصيدة؟بتعبير آخر أيكمن دور الإحالة المقامية*التواصلية في المبحث التداولي؟ في الإجابة على السؤال كيف يتم التخابر بالكلام الإنشائي؟ أي لا يفك شفرة مقصدية المعنى الضمني/المجازي إلا صاحب المقام البلاغي، حيث الإنشائي للمنشئ والخبري للمخبر؟

2.اللسانيات ومُصطلح الوظيفة:

يعد مصطلح الوظيفة من أهم المصطلحات في حقل اللسانيات الدالية والتداولية معا، "وفي هذه الأخيرة تنعت بالتداولية (**PragmaticFunction**) سواء كانت كانت دلالية (التي تحدد الأدوار التي تقوم بها موضوعات المحمول) أو تركيبية (التي تحدد الوجهة)"[5]، "وهو يعني الدور الطبيعي الذييقوم به أي شيء داخل الكل،باعتباره جزء منه،كالنشاط أو الدور الذي يقوم به أي شخص،أو أي عضو،أو عنصر داخل تنظيم،أو جهاز من الأجهزة"[6]فالوظيفة من هذا المنطلق هي النشاط،أو الدور الذي يتميز به عنصر دون آخر.

ومن مقاربة أحمد المتوكل للنظرية الوظيفية في اللسانيات والنحو الوظيفي وفي الخطاب، أُعتبر من أهم الباحثين العرب المشتغلين على تداولية الخطاب وهو يميز بين معنيين للوظيفة:

1. الوظيفة هي العلاقة القائمة بين مكونين أو مكونات في المركب الاسمي أو الجملة،وتكون علاقات مشتقة حين يتم تحديدها على أساس موقع المكونات داخل بنية تركيبية معينة،كما قد تكون الوظيفة علاقات أولى (غير مشتقة) إذ هي حددت مجردة عن أي بنية تركيبية أوتطريزية[7]

ومنه فالدلالة الأولى للوظيفة عند أحمد المتوكل هي تلك العلاقات الرابطة بين أجزاء الجملة،وهي نوعان:علاقات مشتقة كامنة داخل البنية التركيبية (الملفوظ)،وعلاقة غير مشتقة معزولة عن هذه البنية (الخطاب واستعماله لوظيفة كدور المقابل للملفوظ واستعماله اللساني)

2. الوظيفة هي الدور أو الغرض الذي تسخر الكائنات البشرية اللغات الطبيعية من أجل تحقيقه[8] يقصد المتوكل ههنا بالغرض الهدف الذي يروم الإنسان تحقيقه انطلاقا من اللغة؛أي اتخاذ هذه الأخيرة وسيلة للوصول إلى مراده. "كما أشار المتوكل إلى أن العلاقة والدور مفهومان متباينان،كون العلاقة رابط بنيوي قائم بين مكونات الجملة،في حين أن الدور يخص اللغة بوصفها نسقا كاملا،لكنهما في الآن نفسه مفهومان مترابطان"[9]فالوظيفة كعلاقة عنصر داخلي يربط أجزاء الجملة،بيد أن الوظيفة كدور تعنى بغرض التواصل.

3.المفهوم المتغاير لمصطلح الوظيفة بين الخطاب والاتجاهات اللسانية الثلاث والبلاغة:

أما مفهوم الوظيفة في التراث العربي فلم يتجاوز الموقع الإعرابي للكلمة في النحو، وكشف دقائق وأسرار وجمال اللغة في البلاغة، بحيث تحديد اسم لكل اسم أو كل فعل أو حرف، إن كان مبتدأ أو فعل أمر أو حرف جر مثلا، هو وظيفته في النحو، بالتالي في الجملة اللسانية صرفا وتركيبا من جهة، ولما يثيره من "تنظير دلالي نتيجة تبعية البنية لوظيفة التواصل ومد الجسور لوصل البحث اللساني الوظيفي بالتنظير العربي التراثي للدلالة منظورا إليه في مجمله نحوا وبلاغة وفقه لغة.."[10]، وهكذا ظل الأمر إلى أن فقدت الصورة الشعرية لأول مرة مع الشكليين الروس مفهومها القديم الذي يعطيها لها الشعر بوصفه تفكيراً بوساطة الصور، ومن هنا فصاعدا أصبح هناك وسائل متعددة للغة الشعرية.

وجدير بالذكر أن النظرية الوظيفية كانت نظرية قائمة بذاتها في أعقاب ظهور علم اللغة الحديث،حيث تبنت مدرسة براغ علم اللغة الوظيفي في دراستها للغة بقيادة رومان جاكبسون، وواضح من التسمية أنّها

جعلت من دراسة اللغة تقوم على أساس الوظائف الصوتية في سياق نحوي تركيبي. ولا ريب أن تتطور مفاهيم الخطاب عن المدرسة اللسانية والبنيوية في النقد الأدبي المعاصر كون أن ثنائية دي سوسير الكلام/اللسان ثنائية جدلية، وديسوسير نفسه وهو يحلل بنيته الداخلية دون النظر إلى العوامل الخارجية بمبدأ المحايثة**l'immanence** لم يستقل عن طابع اللسانيات التجريدي جدلا، فهو كان يتكلم؛ والكلام هو الأداء الفعلي للسان، وهو جدير باللغة جدليا وكل حياة اللسانيات لا معنى لها خارج الكلام للهم إذا استثنينا سيميولوجيا الإيماءة والرمز والإشارة، والكلام من يربط الانتظام الشكلي بالسياق الفعلي أو العملي في إنتاج الكلام (ضمير الأنا) ذلك أن السيميولوجيا جزء من اللسانيات، وإلى هنا لا يزال مفهوم الخطاب لما ربط الثنائية الديسوسيرية بالسياق النصي التركيبي في حقل الدرس اللساني أو البنيوي، ذلك "أن اللسانيات مثل اللغة تماما تجسد بالتزامن وظيفتي تشكيل العالم وبنائه وذلك دون أن يكون التمييز بين المجالين أمرا ممكنا بالفعل وحتى دون أن يكون أمرا مأمولا"[11]، ولم يتحول عنهما إلى خطاب ما بعد البنيوية إلا منتقلا من قيم علاقات الوحدات النصية المجردة إلى قيم التلقي الدلالي لتلك الوحدات ضمن مستويات تأويلية (اقتران تحليل الخطاب بالتلقي وبجماليات الخروج عن سلطة العادة الثقافية) طارحةً سياقا ذا بعد تدولي للغة ضمن مستويين؛ الأول ضمن للسانيات الاجتماعية التي يختلف بموجبهاالملفوظ كبناء لغوي عن التلفظ؛ مجالا لمتابعة حركية السلوك اللغوي في الكلام، باعتبار كل عملية تلفظ محددة اجتماعيات قبل الدراسة بصورة مسبقة عبر شبكة المفاهيم نفسها.

وثانيا ذو بُعد بلاغي خطابي خاص بثقافة المتكلم في إنتاج الكلام وفق سياق تلفظي تركيبي مختلف في الجملة، إذن مفهوم الخطاب أو الملفوظ هو مفهوم لساني بنيوي، بيد أن تحليل الخطاب أو التلفظية مفهوم يتجاوز النسق إلى سياق القارئ أو المخاطَب في تلقيه نص الخطاب،ويستقي أدواته الإجرائية والاصطلاحية من بُعد خارج محايث في عملية التواصل واستنادا إلى نظرية الفعل الإنجازي للكلام نتيجة علاقة الملفوظ بالتلفظ، وتعنى الوظائفية التداولية للخطاب بمقامات التداول ليس بمعزل عن السياق التداولي والنفسي والسوسيو ـ ثقافي (..) للخطاب، ولعل التأويل الذهني للمتلقي واستهلاك القيم المادية مرتبطان جدليا بسياق العادة ومقام تداول الثقافة (التطبع) للغة/لسان اجتماعي ما، "ومعنى المتخاطِب أساسا يستدعي معه سياق المعرفة الخاصة والعامة التي يتقاسمها المخاطبون، وسياق المعرفة هذا يضم مكان

وزمان اللفظ، وبالجملة فإن مجال التداولية يتحدد بحالة كلامية لا تضم فقط اللفظ والمتكلم والمستمع، بل المعرفة المشتركة لهذه العوامل الخاص منها والعام (أي سياق اللفظ)"[12]

4. الوظيفة التداولية والبعد المقامي في خطاب "منزل الأقنان" البلاغي:

لعل رؤية ظواهر العصر وهي متناقضة ومشوشة، ليس جدير ببنية اللغة التي لم تُلحقها بمسارها الرؤيوي التاريخي المنسجم مع مقاربة الحقيقة الإحالة المقامية إلى الخارج، إحالة استكملت عبرها تجربة السياب مخزونها الشعري من مفردات الإيحاء، والتي صقلت معجمه وشكلت مقصديتها بجمهوره، بإعتبار ما "كان موحيًا هو ذا قصد وما لم يكن موحيًا فلا يملك مقصدية"[13]، والكلمات في الشعر أكثر منها معنى في النثر والشاعر يحمّل الألفاظ من المعاني أكثر مما تحمله في الأذهان، والحرية تقتضي عدم الالتزام لذلك فإن للشاعر الحرية المطلقة في إيجاد نحوه الخاص وإيقاعه الخاص، وقد أضحى معجم هؤلاء متداولا حتى خارج سياق اللساني المحضن الأول للسياب والبياتي وغيرهما، وغدا خطابا شعريا انتقل به من فعل كلامي ونصوص خاص إلى إرث لساني مشترك بالتداول، أي "ليس إبراز منطوق لغوي فقط، بل إنجاز حدث اجتماعي معين"[14]

لقد تشبعت الدراسات النقدية المعاصر باستنطاق نصوص التراث سواء العربية منها أو الحداثية للكشف عن جمالياتها كالنص الذي بين أيدينا، بآليات قراءة جديدة، ويكفي تدليلا، العدد المعتبر ممّن أعادوا إنتاج قصيدة السّياب هذه، من منظورهم الذاتي التأويلي، تجاوزا لسلطة انتظارات القراء الإبداعية التي توجه النصوص وجهة متخالفة، "فأفق الخطاب النقدي لا يتشكّل من وظائفه فحسب، ولكنه يتجاوزها إلى نطاق فعاليته، ومسؤوليته إزاء نفسه، وتهيئته لمناخ معرفي يرهف قدرة القارئ على التعامل مع كل ثمار النشاطات الأدبية المختلفة.. فالخطاب النقدي كمجال من مجالات الخطاب الأدبي ينطلق من مصادرة أساسية تتصور نوعا من التلاحم والتفاعل بين علمية النقد وإبداعيته.. ومن البداية ستجد أن مجال الاهتمام الرئيسي للنقد الأدبي هو إنتاج نصوص يكون مدار اهتمامها بعض أبعاد مختلف وأصبحت مهمة لها قيمتها وسلطتها ومؤسساتها، أو بالأحرى مكانتها في المؤسسة الثقافية إذ تعتبر نشاطا ثقافيا قيّما فضلا عن كونها عنصرا أساسيا في عملية التأريخ الأدبي"[15]

مصطلح تداولية الخطاب لا يقابل لسانيات الخطاب وظائفيا (حيث الأول تواصلي والثاني دالي تركيبي) بينما منهجيا هو يقابله، عن طريق الاستفادة من تطور الأبحاث اللسانية بخاصة مع "الدلالة

التوليدية" وأبحاث شارل موريس حين تقسيمه الثلاثي بين حقول علم العلامات (النحو، الدلالة، التخاطبية أو التداولية) والجمع بينها وبين النظرية الوظيفية سليلة إرث مدارس: النحو الوظيفي لسيمون دايك وهارفارد الأمريكية و"النسقية" وبراغ الأوروبيتين، وامتدت الاستفادة لتشمل حتى نظريات ما بعد البنيوية تجاوزا للإشكاليات المنهجية التي كانت منبعها الاهتمام بالنص والمرسل وإهمال سياق المتلقي. ويدعو بارت هذه العناصر الوظيفية الأربعة: الوحدات التوزيعية الأساسية والثانوية والوحدات الإدماجية التشخيصية والسياقية بالنحو الوظيفي للسرد أو صيغ تركيب الوظائف، والمتميزة بالتوالي الزمني للوقائع والاستتباع المنطقي للأحداث في السرد مما يفضي إلى التباين (منتج الدلالة) "وبما أن التشاكل الذي هو عند براستي (كل تكرار لوحدة لغوية مهما كانت)ولا يحصل إلا من تعدد الوحدات اللغوية، فمعنى هذا أنه ينتج عن (التباين)، وإذن لا يمكن الفصل بين (التشاكل) و(التباين)"[16] . وإذا لقي الخطاب الأدبي تأثيرا فلأن له وقع جمالي على المتلقين ووظيفة شعرية، أما إذا كان للنص الأدبي شعرية مميزة تنبع من علاقات لغوية خلافية وظيفية تقوم بها عناصره على مستويات :(السبك، الحبك، القصد، القبول، الإعلام، المقامية، التناص) وهي التي تفرز معنى لا تتجاوز إشاراته الدلالة النظام اللغوي بترميزاته وإيقاعات ومجازاته إلا مع الاتجاه الوظيفي التداولي الذي تلى مرحلة اللسانيات التوليدية التي خلفت إشكالية الانغلاق باللغة في ذهن صاحبها، "فعلا، أن نشير إلى أن بعض الكلمات المشيرات الدالة على الزمان أو المكان أو الأشخاص من قبيل (الآن وهنا وأنا) لا يمكن تأويلها إلا في سياق قولها. وأقل سذاجة أن نذكر بأننا، عند التبادل اللغوي، نبلغ من المعاني أكثر مما تدل عليه الكلمات، وليس من الساذج أن نقول أخيرًا إن استعمال الأشكال اللغوية ينتج عنه بالمقابل إدراج للاستعمال في النظام نفسه، فمعنى القول يقوم على شرح لظروف استعمال، أي لأداء ذلك القول"[17]

وبمقتضى تداخل في المناهج فإن الوصول إلى التحليل الوظيفي لتداولية أي خطاب يمر عبر توظيف معرفي للبلاغة والخطاب والتداولية، فالوظيفية لأن لها دورا فيما نحن بصدده؛ على أن نركز في الخطاب على سياق المخاطَب/المتكلم وفي التداولية على مفهوم الفعل الإنجازي للكلام، والجامع بينهما هو ذلك الكلام الذي أهمله علم اللغة الحديث، وكان سببا فيما بعد في توالد الاتجاهات التي تنتقد علم اللغة الحديث من الداخل ومن الخارج؛ وقد "كانت البلاغة تمثل الصفة الجمالية للخطاب، معتمدة على مجموعة منأدوات التحسين، حتى تتجنب السأم أو اللامبالاة عند مستقبل الخطاب"[18] وهي بذلك تقابل علم القواعد الذي كان

يعرض على أنه طريقة ضمان الاستعمال الصحيح للغة من أجل غاية اتصالية. أما "مصطلح الخطاب يرادف الكلام لدى دي سوسير، وبالتالي يعارض اللغة ومن سمات الكلام التعدد والتلون والتنوع، لهذا فإن اللسانيات لم تر فيه الموضوع الذي يمكن للعلم أن يقبل عليها بالدرس والملاحظة"[19]

ولئن كان جون فيرث قد فهم المعنى على أنّه وظيفة في السياق "علاقة بين العناصر اللغويّة والسياق الاجتماعي بحيث تتحدّد معاني تلك العناصر، وفقا لاستعمالها في المواقف الاجتماعية المختلفة"[20] فإن جون أوستنJohn Austin ألح على ما يعرف بنظرية أفعال الكلام أو قصدية الخطاب، على أن لِلُغة التواصل فعل إنجازي سواء كانت صادقة في مطابقة الواقع الموصوف أو كاذبة، هي تكوّن خطابات تخضع لمعيار الفشل أو النجاح، وقسم الفعل الكلامي إلى ثلاثة أقسام:

1.فعل القول ويراد بهذا الفعل إطلاق الألفاظ في جمل مفيدة ذات بناء نحوي سليم، وذات دلالة.

2. الفعل المتضمن في القول: وهو الفعل الإنجازي الحقيقي، إذ إنهعمل يُنجز بقول ما.

3. الفعل الناتج عن القول: وهو مجموعة الأفكار المترتبة على الفعل السابق.

ويحدد أوستن أيضاً خصائص هذا الفعل في ثلاث نقاط:

1. إنه فعل دال.

2. إنه فعل إنجازي: أي يُنجز الأشياء والأفعال الاجتماعية

3. إنه فعل تأثيري أي يترك آثاراً معينة في الواقع، خصوصاً إذا كان فعلاً ناجحاً[21].

وقد رأى "أصحاب الاتجاه الوظيفي التداولي ارتباط بنية اللغة بوظيفة التواصل والتبليغ والتبيان، وتقوم الوظيفة على أن لا اعتبار للوحدات اللسانية إلا من خلال الدور الذي تلعبه في التواصل"[22]بيد أن نشوء منهج تحليل الخطاب لم يتحقق دون دراسة استعمال اللغة وكيفية إضفاء الناس المعنى عليها بحسب السياق، فتضمّن بذلك المقاربة التداولية واللسانيات وغيرهما، إذن تحليل الخطاب كيفما كان هو تحليلا تداوليا، والتداولية تخصصا فرعيا لدراسات الخطاب.

وبما أن كل من التداولية والخطاب فرعان من اللسانيات، على أن التداولية تهتم بالوظائف التواصلية للغة فإن "التداولية تتطرق إلى اللغة كظاهرة خطابية وتواصلية واجتماعيةمعًا"[23] ومن هذا المنظور فإن النحو الوظيفي (كون التحليل الوظيفي اخترق الحدود المنهجية لجميع الدراسات اللسانية الحديثة) أو تداولية الخطاب ضمن استراتيجية سياقية تتجاوز اختزال الخطاب في الملفوظات إلى التعبير عن تمثيلات ذهنية

ثقافية للملفوظات*، ويتجلى هذا الترابط في كون نسق الاستعمال يحدد في حالات كثيرة قواعد النسق المعجمية والدلالية والصرفية- التركيبة والصوتية- وهو ما يعني به فرع اللّسانيات المسمى اللغويات الاجتماعية من أبسط العبارات والأمثلة في هذا المضمار اختلاف خصائص العبارات اللغوية باختلاف الوسائط الاجتماعية كجنس المخاطب وسنّه وطبقته المجتمعية والمنطقية الجغرافية التي ينتمي إليها[24]

وقدميّز اللساني المغربي أحمد المتوكل في كتابه "الوظائف التداولية في اللغة العربية"خمس وظائف تداولية: المبتدأ ـ الذيل ـ المنادى ـ البؤرة ـ المحور، "وتنقسم الوظائف التداولية طبقاً لتكوين الجملة قسمين: وظائف «داخلية» (المحور والبؤرة) تسند إلى أحد الموضوعات (الموضوع الفاعل أو الموضوع المفعول أو أي موضوع آخر) ووظائف «خارجية» (المنادى والمبتدأ والذيل) تُسند إلى مكونات خارجية عن الحمل (بمعنى أنها ليستمن موضوعات المحمول)"[25].

1.4 الوظيفتان الداخليتان البؤرة والمحور: يُسندان إلى مكونين داخل الحمل* (بؤرة الجملة)، حيث المحمولات في النحو الوظيفي مفردات تحيل إلى الوقائع: أعمال (Action)وأحداث(Process) وأوضاع (Position) وحالات (States)، وتكوين المحمولات بنية تشتمل على:محمول وعدد معين من الحدود "ويحدد الإطار الحملي حسب المتوكل: ـ المحمول

ـ مقولة المحمول التركيبية: (فعل)،(اسم)،(صفة)،(ظرف)

ـ محلات الحدود المرموز إليها بالمتغيرات (س^1،س^2،....س^ن)

ـ الوظائف الدلالية: (منفّذ)،(متقبّل)،(مستقبل)،(مستفيد)التي تحملها محلات الحدود"[26]

1.1.4 وظيفة البؤرة (Focus): والبؤرة مفهوم نحوي وظيفي اقترحه سيمون ديك، وهو أهم عنصر في الجملة،باعتبار الوظيفة والمجال، "وظيفة البؤرة تسند إلى المكون الحامل للمعلومة الأكثر أهمية أو الأكثر بروزا في الجملة، ويمكن أننميّز بين نوعين من البؤرة:بؤرة الجديدوبؤرة المقابلة من حيث طبيعة وظيفة البؤرة،كما يمكن أننميز بين بؤرة المكونوبؤرة الجملة من حيث مجال هذه الوظيفة"[27]،أما بؤرة الوظيفة فلدينا: بؤرة الجديد/ وبؤرة المقابلة: "نُعرّف بؤرة الجديد بأنها البؤرة المسندة إلى المكون الحامل للمعلومةالتي يجهلها المخاطب،ونُعرّف بؤرة المقابلة بأنها البؤرة التي تسند إلى المكون الحامل للمعلومة التييشك وينكر المخاطبورودها"[28]

بؤرة الجديد هي عبارة عن عناصر تحمل معلومات جديدة لم يسبق للمتلقي معرفتها بحيث تتضمن اختبار حواب عبى سؤال المتكلم، في حين أن بؤرة المقابلة هي تلك العناصر الحاملة لمعارف سبق للمخاطَب الشك فيها بحيث تتضمن اختبار تعقيب منه لا جواب كقوله: لا أو بل، "فما يمكن أن يضيفه المتكلم للمخاطَب ليس معلومات جديدة فحسب، بل كذلك معلومات تعدّل، أو تصحّح، أو تعوّض معلومات في مخزون المخاطب"[29]، وهنا تنفتح مقامات التواصل بين حال المخاطَب ومقصد المتكلم، أو ما يعرف بالقراءة التأويلية للخطاب أو بالبلاغة (مطابقة مقتضى الحال) بحيث تحمل كل من بؤرة الجديد والمقابلة عدة طبقات مقامية بينهما.

وبؤرة الجديد التي تسند للمكون الحمل، الحامل للمعلومة عن (خرائب)، وهي الأكثر أهمية في جملة مطلع القصيدة، وهي (فانزع الأبواب عنها تغدُ أطلالا)، بحيث أنّ نزع الأبواب بإزاء الخرائب حملت جديدا إلى المخاطَب وهي أنها تغدُ أطلالا، والمقصود إجابة للراوي لنفسه ما الخرائب؟ والبؤرة بؤرة جديد لأنك عندما تنزع عنها الأبواب تغدُ أطلالا، بيد أن هذه اللغة التواصلية من صنف مستوى اللغة البلاغية التي طرفاها الراوي ومتلقي نخبوي مدرك نفسيا لهذه اللغة الطبيعية المتسمة بالانزياح وخرق المألوف.

وخوالٍ قد تصك الريح نافذة فتشرعها إلى الصبح، لكن ما الخوالي؟ إنها التي تصك الريح نافذة فيها فتشرعها إلى الصبح، إذن هي بؤرة جديد تسند على مكون "خوالٍ"، نفس الشيء بالنسبة للجملة التالية: يطل منها بوم دائب النوح.

أما في (سلمها المحطم، مثل برج داثر، مالا يئن إذا أتته الريح تُصعده إلى السطحِ) فهناك بؤرة مقابلة وهي حاملة لمعلومة ليست مهمة، تشبيه (مثل برج داثر) لا تسند على مكون الحمل، بل على بؤرة المكون (سلمّها المحطّم) ونفس الجمل التالية: (يصعدها الريح إلى السطح)، وسفين تعرك الأمواج ألواحه، وتملأ رحبة الباحة... إلى غاية تملأ عالم الموت. كلها بؤر مقابلة لا تحمل معلومة يعرفها المخاطَب، فهي من عالم الراوي وتجربته الخاصة التي أدركها بعد نظرته للخرائب، وتقتضي تفكيرا وإدراكا بلاغيا تواصليا مقابلا من لدن المخاطَب الذي من المفروض أنه يقدّر التجارب الشخصية المعبر عنها بهكذا خطاب منساب من خوالج النفس.

أما بؤرة الجديد المسندة على مكون (بهسهسة الرثاء) في جملة: بهسهسة الرثاء، فتفزع الأشباح تحسب أنه النور سيشرق. فإن فيها حمل يحمل معلومة للمخاطَب يجهلها إبلاغيا لكن لا يجهلها ثقافة، فالقبول بها

ثقافةً يجعل من استساغتها تعابيرا بلاغية وهو ما يقوي الاتصال، ونفس الشيء في الجمل اللاحقة: تمسك بالظلال وتهجر الساحة إلى الغرف الدجية ـ وهي توقظ ربة البيت لقد طلع الصباح. أما جملة (وحين يبكي طفلها الشبح، تهدهد وتنشد: يا خيول الموت في الواحة) فبؤرة مقابلة لأنها لا تسند على حمل بؤرة الجملة: حين يبكي طفلها الشبح، لكن تسند على معلومة ينكرها المخاطَب، علاوة على سؤال المخاطب الذي يحتمل عدة تأويلات منها أن الأشباح تتكلم بكلام غير الطبيعي، أو على الأقل تتضرع بملائكة الموت عوض خيول الموت.

وفي الجملة الاستفهامية المعبرة عن حالة الوضع والعمل معا (ألا يا منزل الأقنان، كم من ساعد مفتول رأيت؟)، قد نتوقع جوابا غير ما يعرفه الراوي، فهي بؤرة مقابلة ضمن خطاب لغة طبيعية غير مباشرة، وهي لغة خطاب بلاغي منزاحة نحو مخاطبة الجمادات، ما يخلق خطاب تأويلي سياقه إدراكي (الذين يرون هم أهل المنزل)، لا يخلو من تدخل التجربة الذاتية على لغة وخطاب مقاربين لهذا الخطاب من لدن قارئ أدبي لخطاب الراوي الشعري، وهو بصدد مساءلة منزل الأقنان، وفي نفس الحالة التي يسائل فيها الراوي المنزل لما يقول: ألستُ الراكضَ العدَّاء في الأمس الذي سلفا؟! المفترض ألا تجيب تجربة القارئ بما يقابل الصور غير الشعرية في الحمل النووي: ألست العداء الراكض؟ بغير كيف؟ وما بلك إن ألحقت الجملة النووية بحد الزمن، وكان ذلك الزمن هو الماضي الذي سلف.

أما جملة (لو خيّرت أُبدِلت ما ألقى بما ذاقوا) تمثل بؤرة جديد لما حملت معلومة جديدة للمخاطَب استندت على المكون لحامل لأهم معلومة فيها خالية من التجريد أو الترشيح البلاغيين، والشأن ذاته تحملها بؤر الجديد المسرودة تواليا (محمولاتها تدل على الحالة)، ومفضية الى دلالة واحدة، وهي معاناة الراوي مع المرض والغربة والفقر، إلى درجة الأمل عند وفاته بأن تبكيه ذكريات منزل الأقنان الحية بعده. وهذا إن دل على شيء دل على عدم قدرة النحو الوظيفي المحايث عزل خيالات أو الصورة الشعرية (البلاغية) للمخاطَب والمخاطِب معا أثناء التواصل، وهي الوظيفة الحقيقية للأدب بين مرسل ومتلق، والمتبلورة عبر مفاهيم التداولية المتداخلة الطاغية، وهي ثلاثة مفاهيم: المقصدية والسياق/المقام[30]، والاستلزام الحواري بتناوب بؤرة الجديد وبؤرة المقابلة طيلة أطوار السرد.

إذا ليس بمقدور المخاطَب فهم دلالات ملفوظ ضمن جملة واحدة (ليؤول دلالة الخطاب) ما لم يتداوله في إطاره دياكرونيالسياقي أي التلفظ، "ولا يكفي التمييز بين اللغة بوصفها نظاما إشاريا، واللغة بوصفها

وسيلة اتصال ما لم يرتهن هذا التمييز بطبيعة هذا المصطلح وخصوصيته، ولا يبدو مثل هذا الرأي مجديا دون العناية بخصائصه الثقافية واللغوية العربية، لأن المصطلح السردي مرهون بعناصر التمثيل الثقافي التي تؤثر عميقة في الدلالية والتداولية، أي وظيفية اللغة ولا سيما الفعلية، لأن المصطلح السردي شديد التشابك مع الدلالية والتداولية"[31] ونحن ههنا نقترض الموروث البلاغي العربي الذي وظفته الشعرية العراقية الحديثة لخلق بنية شكلية جديدة يلعب فيها التعبير والمعجم دورا أساسيا، في وصفنا للوظائف الخمس المذكورة أعلاه مثل ما فعل المتوكل قائلا: "إلا أننا سنقترض، في وصفنا لهذه الوظائف كلما دعت الحاجة إلى ذلك، تحليلات ومفاهيم من الفكر العربي القديم، نحوه وبلاغته"[32] ذك أن أساس التعبير(كما أشار إليه المتوكل) يرتكز على: مفردات يتعلمها المتكلم كما هي قبل استعمالها تسمى "مفردات أصول" ومفردات يتم تكوينها عن طريق قواعد اشتقاقية انطلاقا من المفردات الأصول سميت"مفردات مشتقة"، وبما أن الأساس يشمل "المعجم" و"قواعد تكوين المحمولات الحدود" فإن المعجم يقوم بإعطاءالأطر الحمليةوالحدود الأصول، بينما تقوم قواعد التكوين باشتقاق الأطر الحملية والحدود غير الأصول.

فإذا كان الحمل في مطلع القصيدة (خرائب فانزع الأبواب عنها تغدُ أطلالا) يشير إلى الوضع فإنه في وسطها يشير إلى الوضع زائد حدث (ألا يا منزل الأقنان، كم من ساعد مفتول رأيت؟) إلى أن ينتقل إلى العمل فقط في جملة وما تلاها (لو خيّرت أُبدِلت ما ألقى بما ذاقوا)

والإطار الحملي النوويفي الجملة:لو خيّرت أبدِلت ما ألقى بما ذاقوا:

لو خيرتف(س1: أُبدِلت (س1))منف(س2: ألقى (س2))مستق(س3: ذاقوا(س3))متق حيث الوظيفتان التركيبيتان الفاعل والمفعول يسندان إلى الموضوعين س1 وس2 الحاملين للوظيفتين الدلاليتين المنفذ والمستقبل.

بؤرة المكون وبؤرة الجملة: "تُسند كل من بؤرة الجديد وبؤرة المقابلةإلى مكون من مكونات الجملة،أو إلى الجملة برمتها، نقصد بقولنا (بؤرة الجملة) بؤرة الحملPredication، إذ إن المكونات الخارجة عن الحمل (المبتدأ والذيل) لا يشملها مجال التبئير. فالبؤرة في الجملة الآتية باعتبارها (بؤرة جملة) مسندة إلى الحمل (ساءني سلوك أخيه) وحده، دون المكون المنادي يا خالد والمكون المبتدأ (عمرو) والمكون الذيل (بل ابن عمه):يا خالد، عمرو، ساءني سلوك أخيه. بل ابن عمه. لذلك يكون التمييز من

حيث مجال التبئير بين «بؤرة المكون» (البؤرة المسندة إلى أحد مكونات الحمل) و«بؤرة الحمل» (البؤرة المسندة إلى الحمل بكامله، دون مكوناتاالجملة الخارجة عنه)"[33]

وفي جملة مطلع قصيدتنا (خرائب فانزع الأبواب عنها تغدُ أطلالا) يستند المكون وهو بؤرة حمل وحامل لأهم معلومة في ثناياها، إلى مكون الجملة التي لا تحوي على بؤرة المكون (المكونات الخارجية عن الحمل: المبتدأ، الذيل، المنادى) وللتمييز بين البؤرة المسندة الى الجملة برمتها وبؤرتا الجديد والمقابلة، نقترح اختبار السؤال ما الخبر؟ فالخبر هو أن هناك خرائب عندما تنزع الأبواب عنها تغدُ أطلالا.

أما وجميع ما يجد له جواب عبر سؤال ما الجديد؟ يتبع باعتباره إضافة خبر جديد مفيد للخبر السابق ومكمل له فهي بؤر جديد ومقابلة باعتبار الوظيفة، لكن بؤرتها تشمل الجملة باعتبار المجال الذي يجمع حقل (الخرائب والأبواب والأطلال) إلى غاية أول جملة لا تستند على بؤرة المكون في الجدة ولا في المقابلة، لكن تستند على بؤرة الجملة برمتها وتكون المقابلة بادئة بالاستفهام (كم) أو الترجي (قد) أو التشبيه كأن (كأن زئير آلاف السنين،..)، وهو مكون حامل لمعلومة مهمة (يا منزل الأقنان) مستندا إلى بؤرة الجملة باعتبار المجال، وهو توالي استرجاع ذكريات الرواي عن المنزل، وهي كلها توحي الدلالة التي ليست من إشارة سيميائية مقابلة لكن بما يثار من خيال تأويلي في ذهن الراوي والمخاطَب فهي دلالة غير طبيعية؛ "تقوم على التأويل وتتأسس على الاستدلال، ينوي المتكلم وهو يتلفظ بجملته إيقاع التأثير في مخاطبه، بفهم هذا المخاطب لنيته"[34]

إلى غاية الجملة التي لا تستند على بؤرة المكون (يا منزل الأقنان) أو الجمل المستندة عليه (استرجاع الذكريات)، وهي في قصيدتنا (ولو خُيرت أُبدِلت ما ألقى بما ذاقوا) وهو مكون حامل لمعلومة تكون أهم مما سبق مسندا إلى بؤر جملية تنتمي لحقل المرض والفقر والغربة الدلالي، ولعل الانتقال عبر سيرورة السرد من بؤر مكون إلى بؤرة تاليها وهي مسندة على بؤر جُملة (يا منزل الأقنان) مثلا يشترط سيمون ديك شروط مقامية لإسناد بؤرة جديد مبنية على تطابق بين المتكلم والمخاطب حول جهل أو معرفة مسبّقة بموضوعات المحمولات، كما في الجمل المسبوقة بكم الاستفهامية: (وكم أغنية خضراء،وكم ألمٍ طويتَ، وكم سُقيتَ بمدمعٍ جاري؟وكم مهد تهزهز فيك؟ كم موت وميلادِ)

أما لإسناد بؤرة مقابلة إلى مكون الجملة (ولو خُيرت..) مثلا يشترط تحقيق بنية الوظيفية عبر الاشتقاق والجزئية أي عبر الوظيفة التركيبية كما في الجمل المسبوقة بهمزة استفهام: ألست وأأمكث الواقعة في

القصيدة بعد مكون الجملة (ولو خيرت..). لذلكم تدخل (هل وكم) على بؤرة الجديد والهمزة على بؤرة المقابلة أما أداة الحصر (إنما) فملتبسة من حيث مجال البؤرة.

وتبقى هناك حالات لا تسند لا على بؤر مكون ولا بؤر جملية، تفسيرها وظيفيا تظافر إنجاز فعل الكلام جراء تداخل مفاهيم تداولية نفسها وفي آن واحد من ذلك تدخل الموجهات؛ وهي "إكراهات متعلقة بتفسير موجهات مرتبطة بالمتحاورين، كضمائر المتكلم والمخاطَب (أنا ـ أنت) وظروف الزمان والمكان (الآن، هنا، هناك)" وعمل الفعل الإنجازي للكلام/ الخطاب الأدبي باعتباره غير تواضعية تحمل دلالة غير طبيعية لكن نية إيقاع التأثير من المخاطِب في المخاطَب، ويقوم "في نظر بول جرايس على مبدأ الاستلزام الخطابي، من خلال التمييز بين ما قيل وما تم تبليغه، فالدلالة هي ما قيل، والاستلزام الخطابي هو ما تم تبليغه"[35]

وعجينة القول استعمال اللغة استعمالا خطابيا خاصا لا يستحيب لأي حقيقة مثالية ثابتة، وإنما يستجيب لنظرية الاتصال التي تقر بأن المعنى متغير ونسبي يخضع لوجهات نظر متغيرة بتغير زوايا الرؤى وموقعها الثقافي (الزمكاني) من الخطاب، فهم تكامل العلاقة بين نظرية القصدية ونظرية أفعال الكلام متيسر عبر الخطاب الشعري العربي، وله حظوته في طريقة الإلقاء الشفاهي، كونه خطاب يجمع بين محاولة بحث عن جديد معرفي وفني (فعل الإنجاز) بالتأثير البلاغي، شأنه شأن أي "تأثير عملي على المتلقي كالإقناع.. بفعل الكلام عبر النطق السليم للحروف التي تمثل المعنى اللغوي الصحيح"[36] ويخضع في علم النفس السلوكي لقاعدة مثير إستجابة، "ولقد عني سيرلبمفهوم القصد عناية بالغة عند حديثه عن المعنى؛ لأنَّ المعنبرأيه ليس حصيلة فردية فحسب،وإنَّما نتيجةللممارسات الاجتماعية أيضا"[37]

2.1.4 وظيفة المحور(Topic):"تسند وظيفة المحور الدال على ما يشكل المحدث عنه داخل الحمل،مثل كلمة زيدفي الجملتين الآتيتين:أ–متى رجع زيد؟ب–رجع زيد البارحة.
يشكل المكون زيد محور الجملتين لدلالته على الشخص المحمول عليه"[38]

وكلمتا "الخرائب" و"أطلال" في جملة (خرائب فانزع الأبواب عنها تغدُ أطلالا) تعد محور في مطلع قصيدتنا لدلالتها التزامنية على محط الحديث فيها، والمحمول عليه باقي الجمل، وهو منزل الأقنان، في حين أن الوضع التخابري في مقام الإخبار يحوي على مُخبر الذي هو الراوي، ومخاطَب متقمص لشخصية منزل الأقنان المعنوية، عندما تناجيه ذكريات الراوي المسترجعة وهو في عز عنفوانه، فيغدُ مرويا له ضمنيا، كما أن

"منزل الأفنان" في جملة (ألا يا منزل الأقتان، كم من ساعد مفتول رأيت؟) في مرحلة اختلال البرنامج السردي تعد محورا، ولو التبست بمكون المبتدأ المتصدر (أو أي مكون خارجي أو داخلي*) يبقى لكل منهما خصائص تركيبية وتداولية مختلفة.

كما أن و"لو خُيّرت" في جملة (ولو خيرت أبدِلت الذي ألقى بما ذاقوا) هي محور شكلت ما يحدّث عنه داخل الجمل التالية الى عودة التوازن السردي، حيث موضوعات البنية الحملية التي تحمل وظائف دلالية (منفذ، متقبل، مستقبل، مستفيد) تنقل عبر الإسناد إلى بنية وظيفية (فاعل، مفعول) ويحدد زمن المحمول وظيفة الموضوع الدلالية كمنفذ، وتحدث البنية الوظيفية التي تسند المحور الى الموضوع كمعلومة جيدة للخاطَب بؤرة جديد: لو خُيِّرتُ أُبْدِلْتُ الذي أَلْقَى بما ذاقوا،مُمِضٌّ ما أُعاني، عاثر الخطوات مرتجفا،..، بلا مالٍ، بلا أملٍ. ولعل غنى أي لغة تواصلية المعجمي من غنى الخصوصية التركيبية: الصوتية، والصرفية النحوية، ولا تستكمل وظيفيا استعلاميتها (التخابر) في الخطاب البلاغي ضمن بنية دلالية خارجة عنها بغير طرفا موقع التخاطب، الذي لا يتحقق فعليا دون مجالي المحورية والبؤرية البلاغية المقابلة، كون فعل الإنجاز في الخطاب الشعري يقترنبالملكة اللغوية المنطقية، كما يقول أحمد المتوكل:"المقدرة التواصلية المتوافرة لدىمستعمل اللغة الطبيعية تتكون من خمس ملكات وهي:الملكة اللغوية،والملكة المنطقية،والملكة المعرفية،والملكة الإدراكية، والملكة الاجتماعية"[39]

ولعلّه جدير بالعلوم الحديثة في اللسانيات كشف لماذا تتداول أنساق لغوية معينة كالأنساق البلاغية في شعر الحداثة، وهي أنساق لا تمت صلة بعصرها المفرد التمثّل بشكل الشعر الإنجليزي؟! لولا أن هناك علاقة علم اللسانيات في منعطفه الراهن بأيديولوجيا الأنساق الثقافية التي لا تُتمثل إلا بلسانيات الخطاب، وبالتداولية، وما يجمع التداولية بالخطاب بالبلاغة العربية، الخطاب الذي يعبر عن ثقافة كعلامة خطابية وظاهرة شعرية مازالت سائدة برغم انتفاء بعض أشكالها، مثل القصيدة العمودية ووحدة البيت، لتشكل نسقا يدافع عن تقاليده الفنية الخطابية (بالتالي ثقافته) من ناحية، والتأثير في المتلقي من ناحية أخرى. و"بناء على ذلك فالمحور هو الوحدة اللغوية الأساسية في الجملة،والتي يقوم عليها الكلام. ويمكن التمييز بين المحورية والبؤرية كمفهومين مجردين عامين من ناحية،وبين تحققهما الفعلي فياللغات من ناحية أخرى،على أساس هذا التمييز،يمكن القول إن لغة ما تنتقي فرعا معينا أو فروعامعينة من مجالي المحورية والبؤرية،إذا كانت تفرد لتحقيق ذلك الفرعأو تلك الفروع،أو آليات مخصوصة صرفية أو تركيبية أو تطريزية

أو تضافرا لهذا جميعا،واللغة العربية من اللغات التي تنتقي جميعفروع المحورية والبؤرية،ولعل ذلك راجع بالدرجة الأولى إلى كون هذه اللغات ذات رتبة حرة."[40]

2.4 الوظائف الخارجية:الوظائف التداولية الخارجية هي:المبتدأ،الذيل،والمنادى.

1.2.4 وظيفة المبتدأ(Theme): "هو ما يحدد مجال الخطاب الذي يعتبر الحمل إليه واردا.مثال:زيد قام أبوه.زيد:مبتدأ.قام أبوه:حمل.الجملة تتركب إذن من ركنين أساسيين:حمل: قام أبوه.مبتدأ: هو الذي يحدد المجال الذي يعتبر إسناد مجموع الحمل إليه واردا"[41]، فالمبتدأ عند النحاة القدامى يختلف عما هو عليه عند التداوليين،فالمقصود به الوحدة التي تحدد المجال التخاطبي. ومبتدأ الخرائب قد حدّدته من خلال إسناد الحمل (فانزع عنها الأبواب تغد أطلالا) فنحن بإزاء مجال آثار بناية، وما يفرق بينه وبين المحور والبؤرة عند احتلال نفس الموقع الخارجي، وهو بداية الجملة، وروده معرفة مع إحاليته إلى الحمل لا إلى نفسه كما تفعله ضمائر القصة (ما) و(هو)، وفي حالة حدوث ذلك مثل: جملة (طفلٌ مات لما جف درٌّ) بالرغم وجود رابط يعرف المبتدأ فهي لا إحالية المخابرة حسب المتوكل، وجملة (هي خوال قد تصك..) تحمل لحنا في استعمال اللغة لأنها بدأت بضمير، "وما يؤكد تداولية معرفية المبتدأ أن إحاليته مرتبطة بالمقام، الوضع التخابري وعلى قدر من المعرفة اللغوية التخاطبية المشتركة"[42]

بيد أن هناك أفعالا في الحمل تسمى بالأفعال الإنجازية مثل: قال وسأل وأمر.. وأدوات الاستفهام (أ) و(هل) وهي كلها تحمل قوة إنجازية لا تشمل المبتدأ وإنما تنصب على الحمل وحده[43] مثل: تُروِّي قبريَ الظمآن ـ أأمكث أم أعود إلى بلادي؟ ـ غريبٌ غير نار الليل ما واساه من أحدِ

وكلمة الأبواب هي واردة إحالية بالنسبة لمنزل، وكل من: خوالٍ سلَّمُها المحطَّم ـ تملأ رُحبةَ الباحةْ ـ تملأ عالم الموتِبهسهسةِ الرثاء ـ ألا يا منزلَ الأقنان ـ ودندن القُصّاص ـ بؤسهم المرير ـ مُمِضٌّ ما أُعاني ـ جاعت أمه.. هي مكونات حددت مجال الخطاب معتبرة إسناد محمولاتها ـ كلٌ على حدة ـ إليها واردا، مثل: جاعت أمهمبتدأ، فالثدي لا لبنٌ ولا لَحَمحمل

خوال مبتدأ،قد تصكُّ الريحُ نافذةً فتُشرعها إلى الصبحِحمل. وقد لا يوجد أي ضمير في الحمل يربطها بالمبتدأ ويسمى حينئذ بالمبتدأ الحقيقي، وهذه خاصية لغوية عربية وهندو أوروبية حسب المتوكل، مثل جملة (ألا يا منزل الأقنانمبتدأ، سَقَّتْكَ الحيا سُحُبُتُروِّي قبريَ الظمآنحمل)

2.2.4 وظيفة الذيل(Tail):

اقترح المتوكل تعريفا جديدا للذيل تدارك به عن قصور التعريف الذي قدمه سيمونديك لهذه الوظيفة،حيث إن ما قدمه المتوكل بخصوص هذه الوظيفة التداولية مستمد من مقترحاتالنحاة العرب القدامى[44]،والذيل عنده ما يحمل المعلومة التي توضح معلومة داخل الحمل أو تعدّلها أو تصححها،ولابد منالتمييز بين ثلاثة أنواع من الذيول:ذيل التوضيح وذيل التعديل، وهما يُنتجان الخطاب، وذيل التصحيح لمطابقة الخطاب،ومن أمثلة الذيلنذكر:أخوه مسافر، زيد: زيد ذيل. ـ نجحا، الطالبان: الطالبان ذيل. ـ قرأت الكتاب، نصفه: نصفه ذيل.[45]

والذيل مكون خارجي موقعه أخير ضمن مواقع الوظائف الخارجية: منادى، مبتدأ، (حمل)، ذيل. وهذه الصيغة توافق أكثر في قصيدتنا ذيل التصحيح، وهي لا تتطابق عموما مع بنية الجملة الشعرية الحداثية القصيرة مثلما يوافقها ذيل التوضيح: تملأ رحبة الباحة، ذوائب سدرة ـحين يبكي طفلها الشبحُ، تهدهدُهـ عاثر الخطوات، مرتجفا ـ ترمي كلَّ مَن عطفا، على المرضى ـ الليل ينظر، نجمه.

حيث في الذيل (تهدهده) ضمير يعود على الحمل بينما يخلو الذيل (مرتجفا) و(على المرضى) من الضمير، وإحالة الضمير إلى الحمل في الذيل مثل إحالته في المبتدأ حسب المتوكل، "مقترحا مصطلح التحاول الدال على العلاقة القائمة بين مكونين لهما نفس الإحالة"[46] على أن الضمير ضروري في البنية المذيلة بعكس البنيات المصدرة بالمبتدأ لأن وظيفة الذيل تداولية لا تركيبية (تحدد العلاقات القائمة بين مكونات الجملة بالنظر إلى الوضع التخابري بين المتكلم والمخاطب في مقام معين كقوله: وولولة الأبِ المفجوع يخنق صوته الألمُ، وهو مقام لا يشترك فيه لغويا واجتماعيا إلا متلق مدرك للسياق الثقافي إدراكا نفسيا كما يقول علماء نفس الخطاب، "الاستعمال اللغوي محدود بالسياق أو بالمناسبة. فهو استعمال للغة بهذا المعنى الذي يحدده علماء نفس الخطاب لما هو خطاب (..) يختلف علم نفس الخطاب عن كل من المقاربات (باعتراضه على علم النفس العرفاني) (..) ويُنظر إلى الفرد والمجتمع على أنهما كيانان منفصلان، وهو ما يستلزم وجود ازدواجية بين الفرد والمجتمع"[47] أي لا يستسيغ لفظة وَلوَل دونما معايشة الواقع البائس الذي يسرده الراوي من جهة، ومُطلّع على الخطابات الشعرية المماثلة لدى نازك الملائكة والجواهري والبياتي مثلا، فلا تنبو عليه الألفاظ في انزياحاتها ولا يقسو عليه المعجم، من جهة أخرى)

فذيل التوضيح (تُهدهده) يعطي المعلومة المزيلة لعدم كفاية الحمل في فهم الخطاب، فيتدخل لإزالة الغموض وعدم الفهم، العائد إلى ضمير (الهاء) في طفلها، فهو بمعنى من المعاني خطاب منتج للتأثير على

المتلقي، وفي الذيل: ذوائب سدرة غبراء في (تملأ رحبة الباحةْ، ذوائب سدرة غبراءٍ) نلتمس دور ذيل التوضيح (ذوائب سدرة غبراء) في إنتاج الخطاب، وحاملا لمعلومة محيلة تستهدف إزالة إبهام وارد في الحمل (تملأ رحبة الباحة) لكن إذا كانت مفردات الحمل مفهومة يقوم الإسناد بتوضيح معاني العربية المتسمة بثراء معجمها، وبالتالي توضيح معنى ذوائب: تداول الريحللسدرة مرة من هنا ومرة من هناك، وفضلا عن أن أخذه الحالة الإعرابية للتوابع (في محل نصب نعت) تضفي جرسا موسيقيا على الخطاب، وهناك المضمرات الضمنية والإمحاءات اللفظية التي تميز الخطاب الشعري سيجليها تأويل مرادفة الذيل لبعض المفردات، ويشترط الإجلاء مقام ثقافي، ففك شفرة المضمرات الممحية في الخطاب و"هي على نوعين: مقتضى ومهمت ويتفرع المقتضى بدوره إلى مقتضى دلالي ومقتضى تداولي"[48]كقوله: حين يبكي طفلها الشبحُ، تهدهدُه، وتهدهه قامت مقام عدة مضمرات وإمّحاءات لفظية؛ كإسكاته، والحنو عليه، وتدليله.. وهلم جر، "تعدديةالمعنى للعلامة اللغوية في الخطاب الشعري تعود إلىالثراء الثقافي للعلامة وإبداعية اللغة/ جمالية اللغة حيث يتمكن المبدع من التأليف بينكلمات غير مألوفة؛ ومن ثمّ يمكننا الكشف عن معان جديدة. وموسيقى الكلمات ودورها البارز في تنوّع إيقاعها؛ ومن ثم تنوع معانيها؛ الأمر الذي يجعلها صالحة للاستخدام في سياقاتمتنوعة"[49]

أما ذيل التعديل لم يرد كثيرا لدلالته البلاغية التي يحملها للمخاطَب عن مكون الحمل إذن هو محك خطابي شعري في الخطاب يفترض تأويلا بلاغيا من لدن المخاطَب، مثل قوله:أتى، قمرُ الزمان ـ دندن، القصاص ـ ترن، أغنية ـ شُلَّ، ظهرٌ ـ انحنت، ساقُ ـ شحَّ، المال. وهي كلها تبين الحمل الذي أسندت عليه منتجة للخطاب أيضا لكن عبر التعديل وليس إزالةً للإبهام، أي يأتي بمعلومة جديدة يرى أنّ الحمل خلى منها، وهي المقصودة، وهذا ما يمنح التعديل إيحاء يجاوز التوضيح إلى التأويل لدى السامع/المخاطَب؛ وفي قوله: (شُلّ، الظهر) عدل الذيل الظهر من معلومة مكون الحمل عن المعاناة (ممض ما أعاني)، مع وجود حالات خاصة قد تقع في إضراب مع الحمل لظهورها في بنيات خاصة تتوجب التصحيح، غالبا ما يفسرها المقام التلفظي الاستعمالي الخاص بالخطاب الشعري دون غيره، كقوله: (ولولة الأبِ المفجوع، يخنق صوته الألمُ) المسندة إلى مكون الحمل (سمعتُ صراخَها والليلُ ينظر نجمُه غمْزًا) وهذا ما جعل عبد الرحمن الحاج صالح يفرق بين بلاغة الخطاب والفصاحة اللسانية/النحوية قائلا: "بلاغة الكلام مغايرة من حيث الماهية لحدود النحو ولا دخل لها في السلامة اللغوية، وإن كانا متلازمين، إذ لا بلاغة إلا بسلامة الصياغة

إلا أنهما متغايران.فذاك نظام لغة وهذا خطاب، فإن نظرنا إلى الكلام كصياغة وبنية لها دلالة فهذا يخص النحوي بالدرجة الأولى، بل ينفرد بها، لأنه يهتم بالجانب المصوغ الدال من اللغة (..) أما الكلام كخطاب فيهتم بدراسته أكثر من واحد"[50]

أما ذيل التصحيح فأمثلته: تهجر الساحهْإلى الغرف الدجيَّة، وهي توقظ ربة البيت ـ على العكّاز أسعى، حين أسعى ـ شدَّ ضلوعَ الجائعين، بصدره الواهي ـ طارت في الضحى المغسولِ، بالشمس الخريفيَّةْ ـ تُروِّي قبريَ الظمآن،تلثمه وتنتحب.الذيل في هذه الجمل هو ذيل تصحيح بحيث يعطي المتكلم المعلومة في مكون الحمل، لكن ينتبه أنها ليست بالمعلومة الصحيحة فيعمد إلى إبدالها بالمعلومة الصحيحة التي يحملها الذيل في بنية إضرابية مطابقة للخطاب، وليست منتجة له.

والجملتين الأكثر انزياحا وبلاغة شعرية في القصيدة (ولو خُيِّرتُ أُبْدِلْتُ الذي أَلْقَى بما ذاقوا ـ ألا يا منزل الأقنان، سَقَّتْكَ الحيا سُحُبُ) تحويان على ذيل تصحيح؛ باعتبار أنه لا يمكن أن تتغير الدلالة صوريا عند قلب الجملة بتأخير المبتدأ ليغدُ ذيلا: (أبدلت الذي القى بما ذاقوا، لو خيرت ـ سقتك الحياة سحب، منزل الأقنان) أما مستعملو اللغة كأداة لتحقيق أغراض متعددة كالتعبير عن الفكر والأحاسيس والمعتقدات والتأثير في الغير لإقناعهم، كمعشر الشعراء، فإن هذا القلب الذي ولّد ذيل التصحيح، ههنا، سيغير المعنى كما يغيره الحذف والتأخير في العربية.

ولعلّ هذه الحالة في العربية هي التي جعلت المتوكل يتساءل: كيف يوافق الذيل إعرابيا أحد مكونات الحمل بالرغم أنه يقع خارجه؟ ثم مجيبا: "يأخذ الذيل الحالة الإعرابية (الرفع أو النصب أو الجر) بمقتضى وظيفته الدلالية أو التركيبية. إلا أن هذه الوظيفة تُسند إلى الذيل عن طريق ما يمكن تسميته بمبدأ «الإرث»، باعتباره مكونا خارجيا، لا عن طريق الأصالة كما هو الشأن بالنسبة للمكونات التي تُعتبر جزءاً من الحمل. ويرث الذيل عن المكون المقصود تعديله أو تصحيحه ـ باعتبار أنه «يعوضه» أو «يقوم مقامه»وظيفته الدلالية والتركيبية"[51] وينتج عن أخذ الذيل الوظيفة الإعرابية للنعت والتوكيد والبدل في العربية قوة إحاليته؛ فبالإسناد تنتج مقامية وتخاطبية الشعر العربي، فضلا عن دلالات الحذف والتأخير وإضفاء الجرس الموسيقي (سفينٌ تَعرُك الأمواجُ، ألواحهْ.وتملأ رحبةَ الباحهْ) الجمالية.

ويبقى ظهور الضمير في ذيل التصحيح مثل ذيل التوضيح ضروريا في مخالفته لوظيفة المبتدأ، الذي قد يأتي غير متصدرا للجملة في بعض الحالات الإعرابية لكنه ليس قطعيا مثل (كم من ساعدٍ مفتولرأيتَ.

أصلها: رأيت كم من ساعد مفتول)؛ بمعنى يأتي حسب ما يفرضه الوزن والقافية الشعريتين، لأنه لا يجوز القول: أبدلت الذي القى بما ذاقوا، لو خُيّرتُهُ. وهذا مسوغ كافٍ ليجعل المخاطَب في وضع وظيفي دلالي ومقامي متقبّل، وهو هنا الذات الشعرية للراوي أو القارئ الضمني، "فالكلام أكبر من أن يكون مجرد تطبيق خالص للسان، فهو توظيف الشفرات غير لسانية إلى جانب الشفرات اللسانية، من أجل توليد مؤشرات تربط الجسور بين الدلالة المجردة في الملفوظ الملموس بالدلالة الضمنية التي ترتبط بسياق/مقام التلفظ"[52]

3.2.2.4 المنادى:

هو وظيفة تستند إلى المكون الدال على الكائن المنادى في مقام معين،مثاله: ـ يا زيد أخوك مقبل. الوظيفة المنادى وظيفة تداولية تؤاسر المبتدأ،والذيل،والبؤرة،والمحور، فإسنادها كإسناد الوظائفالأربعمرتبط بالمقام[53]. إذن المنادى وحدة لغوية كائنة في مقام محدد،وهي وظيفة خارجية أضافها المتوكلمراعاة لخصوصية اللغة العربية لا علاقة اللسانيات الحديثة بها، وردت في قصيدتنا نزرا في قوله: يا خيول الموت في الواحهْ، تعالي واحمليني ـ آهِ يا بلدي!أأمكث أم أعود إلى بلادي؟ ـ ألا يا منزل الأقنان، كم من ساعدٍ مفتولٍ رأيت؟ أولا يجب التمييز في الجملة الواحدة بين النداء كفعل لغوي يحدد جهة الجملة، والمنادى كوظيفة أي كعلاقة مسندة إلى المكونات: خيول الموت، وبلدي، ومنزل الأقنان.

وثانيا في مستوى البنية المحمولية (تعالي واحمليني ـ أأمكث أم أعود إلى بلادي ـ كم من ساعدٍ مفتولٍ رأيت) يدل المحمول على واقعة الحمل ـ مثلا ـ في الأولى والعودة في الثانية والرؤية في الثالثة، كما تدل الموضوعات فيها على وظيفة الدور الدلالية المنفذ مثلا في الأولى والثانية والتقبل في الثالثة، وتدل كذلك على وظيفة التركيب سواء وقعت فاعلا مسندا إلى المكون الأساسي، أو مفعولا مسندا على المكون الثانوي. وفي كل هذا للمُنادى في النحو العربي خصائص يتميز بها ويشبهه فيها المندوب والمستغاث، فضلا عن كونه يقع خارج موقع البنية المحمولية، يضطلع بوظيفة (المنادَى) "اصطلح عليها المتوكل (بمنادَى النداء) قصد تقليص الوظائف الدلالية والتركيبية والتداولية قصد الرقي بالنحو الى (الكفاية النمطية)"[54] ونحسب أن الاستعمال الإنجازي اللغوي في الخطاب الشعري يتميز بهذه الكفاية الوظيفية التي استحسنها المتوكل كونها تتوافق مع خاصية البلاغية للشعر العربي؛ من تنوع معجمي، وتعبير مجازي وبلاغي، ألقى بظلاله الجمالي عليه (تشبيه وتجسيد الموت ـ الشكوى الى البلد ـ مساءلة المنزل مسائلة مجاز مرسل علاقته

المحلية أو المكانية) وقعت موقعا إحاليا مقاميا، كون أن قواعد النحو الوظيفي (البنيات الوظيفية الثلاث داخل الحمل) يمكن أن تتسع الى وظيفة المنادى، أي "يدمج الاطار المحمولي النووي الحدود الإضافية عن طريق تطبيق "قواعد توسيع الأطر المحمولية"[55] فجدلية الدليل اللغوي في سياق بنية الجملة اللسانية/النحوية دليل للبنيات المجتمعية، وعلاقة الإيديولوجيا والوعي باللغة لدى المتلقين في خطاب الاستعمال والتواصل.

5.خاتمة :

أبانت قراءتنا الوظائف التداولية في قصيدة السياب الشعرية عن إمكانية قراءة الخطاب الشعري العربي قراءة لسانية حداثية أولا على أساس تطبيق المناهج الحداثية المطعمة بنكهة من الموروث النحوي والأدبي العربي، وثانيا بإعادة الروح الى جسد البلاغة، فالوصف الشامل الدقيق للبنيات الأساسية في اللغة العربية يستلزم دراسة بلاغتها عبر الشعر العربي الحديث اهتماما بالمعجم وبتحديد الوظائف الدلالية والتركيبية لها.

لا يمكن أن نتعرف على هذه الوظائف إذا لم نعاين السياقات بأنواعها التي يتم فيه الفعل اللغوي، وهي سياقات يجب أن يهتم بها علم النص لعلاقتها الجدلية بالنص، من ناحية، وعلاقتها المتداخلة ببعضها البعض كي تستدعي تأوبلا من لدى المتلقي، من ناحية أخرى، وإقامته علاقة بين القضايا التي تعبر عنها سلسلة الجمل في النص مستئنسا بمعرفة العالم، ومنطلقا من اختيار معارفه المخزنة في ذاكرته للربط بينها وبين قضايا النص.

فهم نمط إنتاج الدلالة مرتبط بنمط تداولها واستهلاكها دون إقصاء آليات التوالد التأويلي الناتج عن تصور سيرورة تدليلية غير قابلة للانكفاء على نفسها، وغير محصورة بحد بعينه، هناك شروط خاصة في الإحالة المقامية يوفرها "المؤول"، فالمؤول داخل بنية الفكر يحول التجربة الصافية المحصل عليها عبر إحالة علامة لغوية تدليلية على موضوع، إلى نموذج تجريدي تستعاد عبره كل التجارب.

أبان بحثنا أن مجموعة القواعد والأعراف التي تحكم تعامل واستعمال اللغة داخل مجتمع معين تنسحب على أي مجموعة أو فضاء آخر شرط أن تتداول هذه الأعراف والقواعد خطابا، أين يُشكل السياق أو مقام المتكلم فيه اللبنة الأساسية، كفضاء قراء شعر التفعيلة العربي. كما أن فهم تقاليد القصيدة الحداثية العربية بوصفها نظاما لسانيا تداوليا مكتوبا يتعداه إلى فهم استعمال الثقافة الشفاهية والمكتوبة، وتطوير ممارسة تلقيها كنسق لساني وثقافي معا، ويغدو تمثيلها معرفيا هو الآخر تمثيلا تداوليا لم ينحا منحاه المبدع إلا بمتلقي نخبوي لتلكم القصيدة.

لا أدل من نضح النظرية التداولية في الفكر العربي المعاصر من فهم وممارسة فعل خطاب قراءة وتأويل شعر التفعيلة في ظل تطور نظريات علم اللسان من لسانيات الخطاب إلى تداولية الخطاب؛ فهم وقراءة خاضعين لسنن الثقافة، وما قراءة مدرسة السياب الشعرية ذات الملامح الثقافية الأنجلوسكسونية إلا نتيجة لاعتبار شرط مقاصد المتكلم وأحوال المخاطب، ولا ريب في أن تتحقق نظرية التواصل الخطابي الشعري اعتبارا لمعارف المغرب العربي التي مصدرها خطاب المدرسة الفلسفية الفرنسية، حيث نظرية التأويل فهمت فهما مغاربيا مع سعيد علوش يختلف عن فهمها المشرقي مع نصر حامد أبو زيد ذوالمرجعية الأنجلو سكسونية، من هنا تكمن أهمية السياق في إتمام المعاني التي تنطوي عليها الشفرة اللغوية بما في ذلك شفرة الشعر، حيث يتعلق هذا الفهم بالثقافة كما تتجلى في الاستخدام الفعلي للغة.

وصبّت ملامح التجربة السيابية الشعرية عبر ركائزها (الإيقاع الموسيقي، التخييل، المعنى) في نهر خطاب حداثي شعري عربي أصيل المعجم، لكن ارتكز على اللغة بوعي مخالف، واللغة كانت دائما وسيطا بين المبدع والمتلقي، لكنها مع الحداثة تحول الوسيط إلى طرف أصيل، فأصبحت مهمة الشعر توصيل اللغة ذاتها، فالذي ينطق ويتكلم في الشعر هو الأبنية الصياغية التي تقدم نفسها تقديما فريدا نابذة الالتزام السابق موغلة في خصوصيتها، ومن ذلك نفرت شعرية الحداثة من التجربة بمفهومها الرومانسي والواقعي وسعت إلى التجلي في مناطق الحال والموقف والمقام.

الهوامش:

[1]. رامان سفيلد، النظرية الأدبية المعاصرة ترجمة: جابر عصفور، مصر: دار قباء، 1998، ص 94

[2]. سعد مصلوح، نحو أجرومية للنص الشعري دراسة في قصيدة جاهلية، فصول، مجلد 1، عدد 10، يوليو أغسطس 1991، ص153.

[*]. وإيميل بنفنيستÉmile Benveniste هو أول من جاء بمصطلح أقرب إلى المصطلحات اللسانية التي منهجها الانتظام الشكلي تاريخيا وهو "التلفظية"، بإحالتها إلى علامات ثلاث من بينها علامة السياق السوسيو ـ الثقافي أو المظروف أو الزمكان (الآن، هنا) بالإضافة إلى الضمير المتكلم/المخاطِب وبصماته، إذن هناك جديد "التأثير" في هذا الانتظام اللساني المدعو تلفظية وهو السياق والتأثير، بغض النظر عن كونه تأثير عقلي فقط أو يشمل الانفعالي/الجمالي.

[3]. رابح بوحوش، المناهج النقدية وخصائص الخطاب اللساني، عنابة: دار العلوم للنشر والتوزيع، 2010، ص76.

[*]. ويقصد بالإحالة الحركة التي تتعالى بها اللغة عن ذاتها.. تربط الإحالة اللغة بالعالم.. والإحالة بالخارج إلى الخارج هي ما تقوم به الجملة في مقام معين واستنادا إلى استعمال معين. بول ريكور، نظرية التأويل الخطاب وفائض المعنى، ص 49.

[4]. عبد الفتاح أحمد يوسف، لسانيات الخطاب وأنساق الثقافة فلسفة المعنى بين نظام الخطاب وشروط الثقافة، الجزائر: منشورات الاختلاف، ط1، 2010، ص 20.

[*]. الإحالة أداة الاتساق النصي تنقسم إلى الإحالة المقامية الخارجية والإحالة المقالية الداخلية (الإحالة اللاحقة والإحالة السابقة) ينظرزاهر الداودي، الترابط النصي بين الشعر والنثر، عمّان: دار جرير للنشر والتوزيع، ط1، 2010، ص 43 ـ 44.

[5]. أحمد المتوكل، الوظائف التداولية في اللغة العربية، الدار البيضاء: دار الثقافة، ط1، 1985، 145.

[6]. يحيى بعيطيش، نحو نظرية وظيفية للنحو العربي، أطروحة دكتوراه، جامعةقسنطينة، الجزائر، 2006، ص33.

[7]. أحمد المتوكل، التركيبات الوظيفية قضايا ومقاربات، دار الأمان، الرباط، ط1 ،2005، ص21.

[8]. المرجع نفسه، ص23.

[9]. المرجع نفسه، ص23.

[10]. أحمد المتوكل، المنحى الوظيفي في الفكر اللغوي العربي الأصول والامتداد، الرباط: دار الأمان، ط1، 2006، ص15.

[11]. جمعان بن عبد الكريم، إشكالات النص دراسة لسانية نصية، المغرب: المركز الثقافي العربي، ط1، 2009، ص 31.

[12]. قويدر شنان، التداولية في الفكر الأنجلو سكسوني المنشأ الفلسفي والمآل اللساني، اللغة والأدب، العدد 17، 2006، ص22.

[13]. صلاح إسماعيل، فلسفة العقل دراسة في فلسفة جون سيرل، القاهرة: دار قباء للطباعة، 2007، ص 193.

[14]. تون. أ وفان دايك، علم النص مدخل متداخل الاختصاصات، ترجمة سعيد بحيري، القاهرة: دار القاهرة للكتاب، ط1، 2001، ص18.

[15]. صبري حافظ، أفق الخطاب النقدي، ص 7ـ 8.

[16]. محمد العزام، تحليل الخطاب الأدبي على ضوء المناهج النقدية الحداثية، دمشق: اتحاد الكتاب العرب 2003، ص138.

[17]. جاك موشلر وآن ريبول، القاموس الموسوعي للتداولية، ترجمة عز الدين المجدوب، تونس: دار سيناترا، 2010، ص21.

[18]. مسعود بودوخة، الأسلوبية وخصائص اللغة الشعرية، إربد: عالم الكتب الحديث، 2011، ص1.

[19]. أحمد يوسف، تحليل الخطاب من اللسانيات إلى السيميائيات، مقاربات، المجلد1، العدد 2، ص 34ـ54.

[20]. أحمد محمد مختار عمر، علم الدلالة، ط3. القاهرة: عالم الكتب، 1992، ص68.

[21]. عبد الفتاح أحمد يوسف، لسانيات الخطاب وأنساق الثقافة فلسفة المعنى بين نظام الخطاب وشروط الثقافة، ص54.

[22]. محمد الحناش، البنيوية في اللسانيات، الدار البيضاء: دار الرثاء الحديث، ط1، 1980، ص 96.

[23]. فرانسوازأرمينكو، المقاربة التداولية، بيروت: مركز الإنماء القومي، 1986، ص12.

[*]. في منظور الجملة الوظيفي لدى مدرسة براغ المسند إليه/الموضوع يدل على شيء يعرفه السامع في عملية التواصل، لأنه غالبا ما يذكر في الجمل السابقة، أما المسند/الخبر فيدل على حقيقة جديدة تتعلق بالموضوع المذكور، فنحن عندما نصوغ عباراتنا لا نُصِيغها تبعا لما نريد أن نبلغه للسامع فحسب، ولكن تبعا لما يعرفه مسبقا وتبعا لسياق الحديث الذي بنيناه حتى تلك اللحظة، ومن هنا يقترب المنظور الوظيفي من أحد أهم المفاهيم الكبرى للتداولية ونعني بذلك متضمنات القول وبالخصوص الافتراض المسبق (أحد عناصر التداولية حيث يوجه المتكلم حديثه إلى السامع على أساس ما يفترض سلفا أنه معلوم له)

[24]. أحمد المتوكل، المنحى الوظيفي في الفكر اللغوي العربي الأصول والامتداد، ص21.

[25]. أحمد المتوكل، الوظائف التداولية في اللغة العربية، 149.

*. يقترح النحو الوظيفي (ويستعمله المتوكل هذا المصطلح عوض الوظائف التداولية) صوغ بنية النحو على الشكل الآتي: تشتق الجملة عن طريق بناء بنيات ثلاث: البنية الحملية (Predicative structure) ثم البنية الوظيفية functional) structure)ثم البنية المكونية(constituent structure) ويتم بناء هذه البنيات الثلاث عن طريق تطبيق ثلاث مجموعات من القواعد: «الأساس» و«قواعد إسناد الوظائف»(Functions assignement rules) و«قواعد التعبير» (Expression rules). ويشمل «الأساس» مجموعتين اثنتين من القواعد تُسهمان معا في بناء البنية الحملية: «المعجم » (lexicon)وقواعد تكوين المحمولات والحدودPredicates and terms formation rulesانطلاقا من الفرضية التي تعتبر أن مفردات اللغات الطبيعية صنفان: «مفردات أصول» (أي مفردات يتعلمها المتكلم كما هي قبل استعمالها) ومفردات «مشتقة» (أي مفردات يتم تكوينها عن طريق قواعد اشتقاقية انطلاقاً من المفردات الأصول) يضطلع المعجم بإعطاء الأطر الحملية (Predicate frames) والحدود (Terms) الأصول، في حين أن قواعد التكوين تقوم باشتقاق الأطر الحملية والحدود غير الأصول. ينظر أحمد المتوكل، الوظائف التداولية في اللغة العربية، ص11 ـ 12.

[26]. المرجع نفسه، ص12.

[27]. المرجع نفسه، ص28.

[28]. المصدر نفسه، ص 28 ـ 29.

[29]. احمد المتوكل، قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية بنية الخطاب من الجملة على النص، الرباط: دار الأمان، 2001، ص118.

[30]. "وقد يؤول الأمر أحيانا إلى أن يكون للمصطلح الواحد معان تختلف باختلاف المستعملين، وهذا هو أحيانا شأن مصطلحات شائعة مثل مصطلح Rhétorique الذي ينبغي ترجمته حسب السياق بخطابة أو ببلاغة، وكذلك شأن Contexte الذي يحيل أحيانا على معنيسياق وأحيانا أخرى على معنى مقام" باتريك شارودو ودومينيك منغونو، معجم تحليل الخطاب، ترجمة عبد القادر لمهيدي وحمادي الصمود، تونس: دار سيناترا، 2008، ص6.

[31]. حياة لصحف، مصطلحات عربية في نقد ما بعد البنيوية، الجزائر: المجلس الأعلى للغة العربية، 2013، ص9.

[32]. أحمد المتوكل، الوظائف التداولية في اللغة العربية، ص10.

[33]. أحمد المتوكل، الوظائف التداولية في اللغة العربية، ص31.

[34]. إلفي بولان، المقاربة التداولية للأدب، ترجمة محمد تنفو وليلى احمياني، القاهرة: رؤية للنشر والتوزيع، ط1، 2018، ص9، عن آن روبول وجاك موشلر، التداولية اليوم، ص31.

[35]. المرجع نفسه، ص9.

[36]. أوشن دلال، القصدية في المورث اللساني العربيدراسة في الأسس النظرية والإجرائية للبلاغة، أطروحة دكتوراه، جامعة بسكرة، الجزائر، 2016، ص135.

[37]. جون سيرل، الوعي واللغة، إنجلترا: منشورات جامعة كامبريج، 2002، ص155.

[38]. المصدر نفسه، ص 69.

*. "تترتب المكونات داخل الجملة الفعلية في اللغة العربية وفق قاعدة موقعة المحور: م4 ، م2 ، م 1 م هـ ف فا (مف) (ص) ، م3. وتحتلها مواقع خارجية ثلاثة، كمكونات لا تنتمي إلى حمل الجملة وليست موضوعات للمحمول: (الموقع م4 المنادى ـ الموقع م3 المبتدأ ـ الموقع م2 الذيل) ومواقع داخلية تحتلها المكونات المنتمية إلى الحمل (م 1: أداتي الاستفهام وإن وما النافية ـ م3: المكون المسندة إليه وظيفة بؤرة المقابلة أو المكون المسندة إليه وظيفة المحور أو اسم استفهام ـ فاومف المكونان الحاملان للوظيفتين التركيبيتين الفاعل والمفعول ـ ص المكون الذي لا يحمل إلا وظيفة دلالية)" ينظر أحمد المتوكل، الوظائف التداولية في اللغة العربية، ص82.

[39]. أحمد المتوكل، قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية البنية التحتية أو التمثيل الدلالي التداولي، الرباط: دار الأمان، 1995، ص16.

[40]. أحمد المتوكل، الوظيفة بين الكلية والنمطية، الرباط: دار الأمان، ط1 ،2003، ص 174.

[41]. أحمد المتوكل، الوظائف التداولية في اللغة العربية، ص115ـ 116.

[42]. المرجع نفسه، ص119.

[43]. المرجع نفسه، ص125.

[44]. حافظ إسماعيلي علوي، اللسانيات في الثقافة العربية المعاصرة دراسة تحليلية نقدية في قضايا التلقيوإشكالاته، بيروت: دار الكتاب الجديد المتحدة، ط1 ،2009، ص361.

[45]. أحمد المتوكل، الوظائف التداولية في اللغة العربية، ص 144ـ 147.

[46]. المرجع نفسه، ص149.

[47]. ماريان يورغنسن ولويز فيليبس، تحليل الخطاب النظرية والمنهج، ترجمة شوقي بوعناني، بيروت: منتدى المعارف، ط1، 2018، ص185 ـ 187.

[48]. محمد القاضي وآخرون، معجم السرديات، تونس: دار محمد علي الحامي، ط1، 2010، ص 395.

[49]. عبد الفتاح يوسف، لسانيات الخطاب وأنساق الثقافية، ص17.

[50]. عبد الرحمان الحاج صالح، الخطاب والتخاطب في نظرية الوضع والاستعمال العربية، طبعة إلكترونية، ص10.

[51]. المرجع نفسه، ص151.

[52]. إلفي بولان، المقاربة التداولية للأدب، ص7.

[53]. احمد المتوكل، الوظائف التداولية في اللغة العربية، ص 161.

[54]. المرجع نفسه، ص163.

[55]. المرجع نفسه، ص164.